المادة: السيرة النبوية
المحاضرة: محاولة نشر الدعوة في الطائف
المرحلة: الأولى
الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET
CALL THE PEOPLE OF TAIF,
THE FIRST STAGE
ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

محاولة نشر الدعوة في الطائف:

إن التطورات آنفة الذكر قد أقنعت الرسول ρ بالبحث عن موطن آمن للدعوة خارج مكة، وكانت مدينة الطائف هي أقرب المدن إلى مكة، فقد كانت تقع على مسافة ستين ميلا عن مكة، في أرض تتوفر فيها الينابيع والمياه، وتكثر فيها المزارع والبساتين.

ويبدو أن الرسول ρ قد فكر بالذهاب إلى الطائف نظرا للروابط الوثيقة التي كانت تربط أهلها بمكة من الناحية الاقتصادية والسياسية والدينية، ومن المحتمل أن الرسول ρ قد قدر أن بعض أهل الطائف ربما يشعرون باستغلال أغنياء مكة لهم ويطمحون للتخلص من نفوذهم عليهم.

إن الرسول ρ عمد حين وصوله إلى الطائف إلى محادثة ثلاثة أخوة، هم عبد ياليل وأخويه، وكانوا يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم. وتشير المصادر إلى أن هؤلاء كانوا ينتمون لقبيلة عمر بن عمير المنتمية للأحلاف، فكانوا بذلك من أنصار قريش.

إن اتصالات الرسول ρ لم تقتصر على هؤلاء الثلاثة، بل إنها تجاوزتهم إلى غيرهم وذلك لأنه مكث عشرة أيام بحيث (لم يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه. فلم يجيبوه وخافوا على أحداثهم فقالوا: يا محمد اخرج من بلدنا والحق بمجابك من الأرض. وأغروا به سفهاءهم. فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى إن رجلي رسول الله ρ لتدميان وزيد بن حارثة يقيه بنفسه).

وحين خرج رسول الله ρ من الطائف دعا بدعاء يعبر عن مقدار الألم والتأثر الذي أحس به نتيجة سوء استقبال ومعاملة أهل الطائف له، جاء فيه: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

ويبدو أن أحد الآثار السلبية التي ترتبت على فشل الرسول ρ في الحصول على نصرة أهل الطائف له في مواجهة قومه، أن عشيرته قدت تصرفه هذا نوعا من الانخلاع أو التخلي عن حماية العشيرة، وبالتالي أصبح أمر عودته إلى مكة من الأمور المحفوفة بالمخاطر، لذا فقد أخذ الرسول ρ يبحث له عن شخص قوي يدخل مكة تحت حمايته أو جواره.

ويلاحظ أن مركز الرسول ρ في مكة بعد عودته إليها من الطائف قد غدا أضعف مما كان في السابق، لأنه أصبح بمنزلة الحليف أو المولى بعد أن كان ابن عشيرة صميم، فلا عجب أن يكون عرضة إلى مزيد من الأذى والاضطهاد كما أن من الطبيعي أن يضاعف جهوده في مجال البحث عن موطن آمن للدعوة في خارج مكة.

بيعة العقبة الأولى:

تمثل بيعة العقبة الأولى خطوة متقدمة على طريق التزام أهل المدين بقضية الإسلام، وعزمهم على تسليم قيادتهم للرسول ρ، فبد أن استجاب الكثير من أهل المدينة للدعوة بعد عودة النفر الستة إليها، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ρ. توجه إلى مكة في موسم الحج من السنة الحادية عشرة للبعثة الموافقة لسنة ٦٢١م اثنا عشر رجلا من أهل المدينة كان بضمنهم خمسة من النفر الذين قابلوه وآمنوا به في العام السابق، وقد كان اثنان من هؤلاء الرجال ينتميان إلى قبيلة الأوس، في حين كان بقية الرجال من قبيلة الخزرج.

ويلاحظ أن مشاركة الأوس إلى جانب الخزرج في التوجه إلى مكة لمبايعة الرسول ρ يعد نجاحا كبيرا للدعوة لأنها استطاعت بذلك أن تتغلب على عامل المنافسة والخصام بين القبيلتين وتصبح وسيلة لجمع أعداء الأمس وتوحيدهم.

لقد التقى هؤلاء الرجال بالرسول ρ في موضع يدعى العقبة، وهي مكان بين منى ومكة، بينها وبين مكة نحو ميلين. فبايعوا الرسول ρ على الالتزام بمجموعة من المبادئ الأخلاقية التي جاء بها الإسلام، وقد عرفت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى، كما أطلق عليها فيما بعد وصف بيعة النساء، لأن الرسول ρ بايع على نفس هذه المبادئ نساء قريش حين أسلمن بعد فتح مكة، وقد أشار القرآن الكرين في سورة الممتحنة إلى هذه البيعة والمبادئ التي تضمنتها.

فعن عبادة بن الصامت، قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلا، فبايعنا رسول الله ρ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلكم الجنة. وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر.

وبعد أن غادر رجال بيعة العقبة الأولى مكة عائدين إلى مدينتهم قام الرسول ρ بإرسال أحد أصحابه الأوائل، مصعب بن عمير إلى المدينة وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكان يسمى المقرئ بالمدينة مصعب، وكان منزله على أسعد بن زرارة، وذكر أن مصعبا كان يصلي إماما بالناس وذلك لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض، وربكا كان ذلك لشدة الخصومة بينهم وحداثة عهد بالإسلام.

إن إرسال مصعب إلى المدينة جاء استجابة من الرسول ρ لطلب أهل المدينة فقد كتبت الأوس والخزرج إلى الرسول ρ: ابعث إلينا مقرئا يقرئنا القرآن، فبعث إليهم مصعب بن عمير.

ويبدو أن مصعب بن عمير كان حريصا على نشر الدعوة بين أفراد قبيلة الأوس بصورة خاصة، وذلك لأن معظم من كان قد أسلم كانوا من الخزرج، لذا فإنه كان يريد كسب الأوس إلى جانب الدعوة من أجل توحيد أهل المدينة تحت رايتها، غير أن هذا النشاط لم يكن يحظى بتأييد زعماء الأوس، لأنهم كانوا لا يزالون على الشرك، لذا فإن مصعبا كان يراعي في نشاطه الحذر والسرية.

ثم استطاع مصعب أن ينتقل بالدعوة من أسلوب الحذر والسرية إلى أسلوب العلانية بعد أن أسلم سيدا بني عبد الأشهل، سعد بن معاذ وأسيد بن حضير مع كافة أفراد العشيرة، حتى أن مصعبا انتقل من دار أسعد بن زرارة بعد أن ضاق قومه من بني النجار بنشاطه إلى سعد بن معاذ.

بيعة العقبة الثانية:

حين أقبل موسم الحج من السنة التالية للسنة التي وقعت فيها بيعة العقبة الأولى، أي في سنة ١٢ للبعثة الموافقة لسنة ٦٢٢م، مشى أصحاب رسول الله ρ الذين أسلموا بعضهم إلى بعض يتواعدون المسير إلى الحج وموافاة رسول الله ρ في مكة لغرض دعوته للهجرة إلى مدينتهم، حيث ائتمروا جميعا وقالوا: حتى متى نترك رسول الله ρ يطول ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

إن عدد المسلمين الذين ذهبوا إلى مكة مع حجاج قومهم من أهل الشرك كان ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين. يزيدون رجلا أو رجلين ضمن حجاج الأول والخزرج من المشركين الذين بلغ عددهم مع المسلمين الخمسمائة، وقد أوضح عروة بن الزبير أن وفد الأنصار كان يضم أربعين رجلا من ذوي أنسابهم وأشرافهم، وثلاثين شابا.

وبعد وصول وفد الأنصار إلى مكة قابلوا رسول الله ρ فيها فواعدهم على الاجتماع بهم عند العقبة، بعد أن يفرغوا من أداء مناسك الحج، وأمرهم أن يلتزموا بالسرية التامة حين التوجه إليه، فلا ينبهوا نائما ولا ينتظرون غائبا.

وعندما حان موعد الاجتماع ومضى ثلث الليل، خرج الأنصار من رحالهم لحضور موعدهم مع الرسول ρ يتسللون تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة. وكان الرسول ρ قد سبقهم إلى مكان الاجتماع وبصحبته عمه العباس بن عبد المطلب، وكان لا يزال مشركا.

لقد افتتح العباس الاجتماع بتوجيه خطابه إلى الحاضرين من الأوس والخزرج بقوله: (إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم

وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده).

وقد عقب الأنصار على كلام العباس بقولهم: (قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت). مما يشير إلى حماسة الأنصار واستعدادهم الكامل للاستجابة لشروط الرسول ρ للهجرة إلى مدينتهم، فتكلم رسول الله ρ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معرور «من الخزرج» بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيا، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر. فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان من الأوس فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها- يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ρ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

إن ما تقدم يشير إلى أن بيعة العقبة الثانية قد تضمنت تعهدا من الأنصار بحماية الرسول ρ حينما يصل إلى مدينتهم والدفاع عنه كما يدافعون عن أنفسهم، وفي المقابل فقد عد الرسول ρ نفسه واحدا منهم، يتضامن معهم في جميع الأحوال.

لقد طلب الرسول ρ من الأنصار بعد أن تمت مبايعتهم له أن يخرجوا له اثني عشر نقيبا ليكونوا كفلاء على قومهم، وأن يكون هو كفيلا على المسلمين من قومه في مكة، فقال لهم: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا، ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا له تسعة نقباء من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وذلك لأن عدد الخزرج بين الأنصار كان أكبر بكثير من عدد الأوس الذين لم يزيدوا عن أحد عشر شخصا من مجموع الذين بايعوا الرسول ρ بيعة العقبة الثانية.

إن بيعة العقبة الثانية كانت بداية النهاية للمرحلة المكية من الدعوة التي اتسمت بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، لذا فقد شكلت شروط البيعة بداية أسلوب جديد يسمح باستخدام القوة واللجوء إلى الحرب في مجاهدة الأعداء، قال عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء: بايعنا رسول الله ρ بيعة الحرب- وكان عبادة من الاثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى على بيعة النساء- على السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الأول

السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الأول

الروض الأنف: السهيلي: الجزء الأول

الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح